ديزيره سقال

كتاب المراثي



(الطبعة الثانية)

٢٠٢٠

ديزيره سقال

كتاب المراثي



(الطبعة الثانية)

٢٠٢٠

المرثاة الأولى:

قصيدة المتنّبي الأخيرة

مطلع: هذه القصيدة أنشدها المتنبي بعد أكثر من ألف عام على وفاته، حين رأى أن ينبعث فانبعث، ولكنْ هذه المرة في غير العراق. وكانت الألفُ الأعوامُ بطيئةً جدًّا، عانى في خلالها الإحباطَ العربيّ – وكان قد بدأ يعانيه قُبَيل وفاته –، واهتزّ بدنُه أكثر من مرّة في جدثه، وغضب شديدًا. وبعد أن انبعث استُنشِد في موطنه الجديد شعرًا (من وحي المناسبة) فكانت هذه القصيدة، وهي آخر ما قاله في حياته الثانية.

إِذا ثوى برمادِ الليلِ ما عَدِموا

فمِثلُهُم جُمَّةٌ من حَولِها جُمَمُ...

وَما عَدِمْتُ مِنَ الزُّلْفى مَطارِحَها

فَرُبَّ رَبٍّ لَهَا ما زالَ يُحتَرَمُ،

ولا عَدِمْتُ مِنَ التَّمْليقِ شارِدَةً

يا سائلَ المجْدِ: أَينَ المجْدُ يَنْتَظِمُ؟

أَلخَيْلُ والليلُ والبَيداءُ تَعرِفُني،

والسيفُ والرِّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ.

(هذا تكرار للقريحة؛ ولكنْ لا بأْسَ في أن يكرّر المتنبي، وهو يرتجلُ الشعرَ، التطريبَ على قومٍ لا يعرفونَ سِواهُ، بَلْهَ التمَلُّقَ، فيغطّونَ في طَيّاتِ التخديرِ الذاتِيّ، ولا يعودونَ منه إلّا إذا استمهَلَهُمْ أَحَدٌ أنْ يحذروا تَعَرُّضَ مصالحِهِمْ للخطرِ. نعم، يكرّر المتنبّي قريحتَه – وهو من الأربابِ الذينَ لا يُعدَمونَ الزُّلفى – إذا تعرَّضَتْ مصالحُهُ للخطر، و...

ولكنْ، ما لنا وللثرثرةِ؟ لنُكمِلْ قصيدةَ المتنبّي:)

صَحبْتُ نفسي وجوعًا كانَ يَنهَشُها
إِلى الثراءِ، فلا خَوفٌ ولا سَقَمُ،
ولا حدودٌ، وعَقلٌ ليسَ يوقِفُهُ
عَنِ التَّفَكُّرِ أَربابٌ، ولا صَنَمُ...
أنا الذي حَمَلَ الأَنْجامَ شامِخَةً
مِنَ الجبالِ عروشًا أرْزُها شَمَمُ!

(وهنا ابتسم المتنبّي لأنّه ذكر الأرزَ، فالأرز شجر وطنيّ عريق، يفخر به أصحابه — والمتنبي، في هذه القصيدةِ، لبنانيّ، فكيف لا يفخر بالأرز؟ – على قِلّةِ ما كان المتنبّي (وسواه) يتعلّق بأرضه، ولو أظهر العكس... ولكن، ما لنا ولكلّ هذا؟ لنُكمِلْ:)

إِنْ قُلْتُ ما قُلْتُ فَالأَجْيالُ مُصغِيَةٌ،

وإنْ صَمَتُّ فصَمْتٌ حَفَّهُ الصَّمَمُ.

حَمَلْتُ حَرْفِي، ودُرْتُ الكوْنَ مُنتَزِعًا

مِنَ التَّنانينِ نابًا دونَهُ الهِمَمُ...

يا ساقِيَيَّ، إِذا ما رُمْتُ خَمْرَكُما

سَقَتْنِيَ الشَّمسُ مِن قَرْنَينِ والنُجُمُ.

(لاحظوا كيفَ حذف المتنبّي الواو من "والنجوم" ببراعةٍ لغويّةٍ، أو عَدَّلَ الجمعَ فصارت: "والنُجُم"، وهذا من فصاحة وحذق في اختيار مفردات النظم.)

وَلَيْسَ تَرْوِينِيَ الأَنوارُ إِنْ عَطِشَتْ
إِلى المنى النَّفْسُ أو طابَتْ لها القِمَمُ.

(أتلاحِظون كيف أنَّ المتنبّي استعمل هنا "النفسَ"، وكانَ قد استعملَ "الجِرِشّى" في مكانٍ آخر، وذلك رِفقًا بالفصاحةِ و... بالأذنِ أيضًا؟)

ولَيسَ تَكْفينيَ النَّجْماتُ أَقطفُها
ويُقطَفُ الخُلْدُ كالأَثْمارِ والشِّيَمُ.
أنا الذي بِيَساري الشمسَ غُرَّتَها
حَبَوْتُها، ويميني دونَهُ الكَرَمُ؛

أنا المقيمُ مِنَ الراموسِ جيفَتَهُ
أنا الثرَيّا، وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ؛
أنا الـ.......................
.... والأُمَمُ.

(وهنا احتقنت أوداجُ المتنبي، واحمَرَّ احمَرَّ... وارتفعَتْ نبرةُ صوته، ولم يَعُدْ بِخِفَّي حُنَين – لأنّ "حُنَينًا" غابَ منذ مدّةٍ طويلةٍ، فلم يجد المتنبّي خِفَّيه –، وهَبَّ الحُمَيّا، فراحَ يكرّر: أنا الـ... أنا الـ...، وهو ينتفخُ، حتّى انفجر: بووووم! محدِثًا دَوِيًّا فظيعًا!)

وَما عَدِمْتُ مِنَ الزُّلْفى مَطارِحَها
فَرُبَّ رَبٍّ لَهَا ما زالَ يُحتَرَمُ.

(أَوَجَدْتُم غريبًا أن يكونَ المتنبّي لبنانيًّا، أو أن يكون اللبنانيّ مُتَنَبِّئِيًّا؟)

المرثاة الثانية:

معلّقة عمرو بن كلثوم الثانية

مقدّمة: قيلَ إنَّ عمرو بن كلثوم أنشدَ معلّقةً بعدَ حياةٍ ثانية لا تختلف عن سابقاتها في جوهرها. وكان شاعرُنا، في حياته الجديدة، فَحلًا من فحول الأمّة العربيّة العتيدة، وفارسًا من الطراز الرفيع، عانى مصيرَ العرب القوميِّ، وخطبَ فيهم مرارًا وتكرَّةً، وصالَ وجال، بل شربَ معهم كأسَ النصرِ – أعتى منها في المرّة الأولى – حتّى الثمالة! غيرَ أنَّه شفَّ عن ملامحَ عَربيّةٍ رفيعة، وإمكاناتٍ ممتازة كحاكمٍ.

سَلوا عَنّا الصَّوارِمَ والطَّعينا،

وبِكْرًا والأَعارِبَ أَجْمَعينا،

فَإِنّا لَيسَ تُدرِكُنا المنايا،

وتُرْسَلُ مِنْ صوارِمِنا المنونا.

يَظَلُّ عَديدُنا شَمْخًا وسَمْقًا،

فتَنْكَسِرُ المنى لِمُقَدَّرينا.

إذا ما الشمْسُ لَوَّحَتِ الثرَيّا

قطَفْناها، فَزَيَّنَتِ الجَبينا.

(هكذا كان عمرو بن كلثوم، في هذه المعلّقة الثانية، يتكلّم على اقتطاف الشمس للزينة – لأنّ الشمس أنثى تحيض كالنساء – مع أنّها تسبّب جفاف الصحراء، وتفتك بالتائهين في الفيافي... ولكنْ، لِنَعُدْ إلى المعلّقة:)

وَأَطلالٍ بَنيناها، وعُدْنا
إِلَيْها اليومَ نَبكي التائهينا –
رمالُ الريحِ أَخْفَتْها، وأَبْقَتْ
على رَسْمٍ لها يُبكي العيونا.

كَأَنَّ عروبَةً دَثَرَتْ وعادَتْ،

وَأَعْرابًا عِتاقًا عائدينا...

(قد يتساءل المرء: ما علاقة الأطلال والبكاء عليها بالعرب والعروبة؟ ولكن، لا بَدعَ، فالعربُ كانت الأطلال من تراث شعرهم، بدوًا وحضرًا، فما المانعُ من الجمع بين السياسة والأطلال؟ ولا سيّما أنّ للأطلال شخصياتها الجامدة من نُؤي وأثافيّ وأوتاد... وغير ذلك. على أنّ الثرثرة لا محل لها هنا؛ لنعُدْ إلى المعلّقة:)

ونُؤْيٍ حَفَّها قَمَرٌ بليدٌ،
تَمَطّى في السماءِ، وكاشحينا،
وأشرافٍ كِرامٍ خَيرِ قومٍ
منَ العربانِ مُرْدٍ، مُصْلِتينا...

(هكذا عدنا إلى موضوعنا الرئيس: الفخر، والضرب، والطعن، و"المواقعَة"، و"أمّهات المعارك" في القرن العشرين... وغيرِ ذلك مما سنتطرّق إليه من شؤون وشجون...)

صَبَغْنا القومَ في الأهْوالِ رُعْبًا
ونَصْفَحُ عنْهُمُ أَيَّانَ شِينا.
وقَعْقَعَةٍ توَقِّعُها قَنانا،
وتَعْقُدُ وَقْعَها الأَقْدارُ حينا.

(كيفَ وجدتم جِرْسَ هذا البيت وائتِلافَ لفظه ومعانيه؟: لقد تعمّد عمرو تكرار القافات والعيون لَمّا كانت العيون ترمقُه وهو ينشد المعلّقة – حتّى لفظة "معلّقة" تحتوي هذين الحرفين – وهدفه من كلّ هذا أن يدبّ الرعبُ في الخصم بعد سماعه المعلّقة الخطابيّة... ولكنْ، لِنُكْمِلْ:)

فَلَمّا أَنْ أتانا الغرْبُ وَحْشًا

يُكَشِّرُ نابَهُ عُصَبًا، ثبينا،

وتَحْشُدُ فيهِ إسرائيلُ كُفْرًا

وعَرْبَدَةً، فَمَنْذا يَتّقونا؟

حَمَلْنا حَمْلَةً كبرى عليْهِمْ

وقارَعْنا القَنا والقادِمينا:

كأَنَّ جَماجِمَ الأَبطالِ فيهِمْ

وُسوقٌ بالأَماعِزِ يَرْتَمينا...

(لم يكرّر عمرو هذا البيتَ إلّا لولوعه بالمشاهد الدمويّة التي تصاحب المواقف الملحميّة – وطَرْدُ الغرب ههنا، ومصارعة إسرائيل من كَفَرَةٍ وعملاء هو الموقف الملحميّ المنشود – وإنْ إنشادًا، أعني شِعرًا وخيالًا –. ولكنْ لِنُكْمل، فالمعلّقة طويلةٌ:)

وَأَنْزَلْنا المحيطَ إلى خَليجٍ
لِنَجْمَعَ شَمْلَنا مستَغْرِبينا –
مَلأنا البرَّ حتّى ضاقَ عَنّا،
وظَهْرُ البحرِ نَمْلَأُهُ سَفينا؛

إذا بلغَ الفِطامَ لنا صَبِيٌّ
تَخِرُّ لهُ الجبابِرُ ساجِدينا!

(وعندما وصل عمرو إلى هذا البيت تذكّر ما قال في معلّقته السابقة، فجاشت نفسه، وفاض دمعه على خدّيه حتّى بلّ نحره ومَحْمَلَه – على نحو ما قال أحدهم – وانعقد لسانُه، فتوقّف عن الإنشاد: عذرًا، عذرًا، أيُّها المستمعون، سنتوقّف هنا، ولن يُكمل عمرو المعلّقة، لا لعجز منه، ولا لأنّ القوافي تعصاه، بل لأنّ زلزال العاطفة جمح بشاعرنا، فكسر عنقه...! وظلّ صدى البيتين في هوّة التاريخ يتردّد:)

وقَعْقَعَةٍ توَقِّعُها قَنانا،

وتَعْقُدُ وَقْعَها الأَقْدارُ حينا.

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينا،

فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا...

(أَمِنَ المدهش أَنْ يجنحَ شاعرُنا، ممثّلُ العروبة والفروسيّة، ويكسرَ عنقَه؟!)

استطراد:

وَأَبْياتٍ مَفازاتٍ رِمالٍ
قَرَضْناها، وَخَدَّرْنا العَذابا،
فلا، يا أمَّ عَمرْوٍ، تَسْأَليِنا،

(كيف رأيتم فَصْلَ "لا" الناهية عن المضارع المجزوم في هذا الشطر الشعريّ الجديد؟ إنّها حَذْلقة لغويّة – والشعب العربيّ يسكن في اللغة قبل أن يسكن في أيّ مكان آخر، ويتخدّر بالكلام – والخطابة طبعًا – قبل أن ينتشي بأيّ شيء آخر...)

لأنّ الشّعرَ يَسترِقُ اللبابا.

فنحنُ رؤوسُنا حُشِيَتْ هَباءً،
ونحن جسومُنا مُلِئَت تِبابا،
وتُهْنا في مَتاهِ القولِ، تُهْنا،
وَأَهْمَلْنا الهُدى وَقدِ استَطابا.

(ألا تلاحظون في هذا البيت هَدرًا كبيرًا للنفَس؟ اتركوه، وَلْنَنتَقِلْ إلى سواه – عذرًا على الآه، أعني حرف الهاء، في الكلمات!)

بَنَيْنا مِن رِمالِ البِيدِ بُرْجًا
صَدًى، فَإِذا بِهِ يَغْدو سَرابا،

ويَسقطُ فوقَ عالمِنا، وتَهوي

مُنانا في شَظايانا تُرابا...

(أفّ من هذه القصيدة التي لا تنتهي! عذرًا، سنتوقف عند هذا البيت، ونكتفي بما أنشدنا حتّى الآن، ترويحًا عن النفس، كيلا تأسى نفوس السامعين وتملّ — ولعلّها ملّت — فالقصائد العربيّة لا تنتهي، وموضوعات الفخر بحر ليس له قرار، والواقع العربيّ كالليل المديد، تسكنه الغيلان والسعالي، وتفتك فيه الضباع، وتضلّ فيه النفوس صراطَها المستقيم، وتصرّفها المستقيم، وواقعها المستقيم...)

المرثاة الثالثة:

عودة تأبّط شرًّا

مقدّمة: يُروى أنّ تأبّط شرًّا قد صارع الغول في إحدى قصائده وصرَعها بعد عراك رهيب، وربّما صارعها في غير قصيدة وصرَعَها. ولكنّه بعد مرور ألف من الأعوام وأربعمئة ونيّف، تذكّر هذا الصراعَ في جدثه، فاهتزّت نفسه، وشاقَه الحنين إليه، وإلى رؤية الغول، وذِكرِها، ووصفها، وقِتالِها، وقَتْلِها... فاهتزّ بدنه، وتململت عظامه، والتمّ عليه ما بَلي من جسده وعاثَتْ فيه الديدان، فانبعث إنسانًا سويًّا، مجدّدًا، عربيًّا طبعًا، شَهْمَ الطبعِ، فارسًا مقدامًا، لا تخيفه غولٌ ولا سِعلاة، ولا جنّ ولا إنس...

وعاد شاعرُنا شاعرًا مُجلّيًا، وفَحلًا جاهليًّا، ولكنّه، إذْ أُنكِرَ عنه الخَلْع، وطَوَّبَ نفسَه هذه المرّة في قبيلته بطلًا صِنديدًا، وقَبًّا مِسْعارًا في الحرب، مِهْمازًا للمطايا، لم يعد يُرى إليه صُعلوكًا وحسبُ، وخرج من مملكة الصعاليك – أضرابِه السابقين – إلى بطاحِ البشر، وخيام العرب، ونوقِهم، وخطَبهم، ومقارعاتهم سيوفَ الآخرين بالسيوف، ولاقى الغولَ ثانيةً، ونازَلَها شرَّ نِزال، وخَضَّبَ الفَيافي بدمِهِ ودمِها، وكِلاهُما، على ما قال شاعرُنا، "نِضْوُ أَيْنٍ، أخو سَفَرٍ". وكانت هذه المواقَعَة من خِيرةِ مواقَعات القرن العشرين، وعملًا مخلَّدًا من أعمال هذا القرن...

كَفاني الدهرُ شَرَّهُمُ، كَفاني،

وشَرَّدَني بِبيدٍ صَحْصَحانِ...

فصِرْتُ، وما خُلِعْتُ، على رَحيلٍ

دَؤوبٍ، لا هدوءَ، ولا تَواني...

وكنتُ، إذا العروبةُ قد دَعَتْني،

قَرَضْتُ الشعْرَ، برّاقَ البَيانِ،

وهَبَّ السيفُ يَفْعَلُ في رِقابٍ

كفعْلِ السِّحْرِ في بَشَرٍ وَجانِ.

أُطاعِنُ ما دُعيتُ إلى الطِّعانِ،

وَأَحْترِفُ البطولةَ في ثَواني...

(لقد كرّر تأبّط شرًّا تصريعَه هنا زيادةً في التنغيم، لأنّ الحاجةَ تقتضي هذا، والموقف الفروسيّ يحتاجُ إلى ما يدعمه صوتيًّا، لذلك من الواجب شَحْنُ الشعر بالموسيقى، ورآها تأبّط شرًّا، في هذا البيت، نابعةً من تكرار الكطاءات في بعض الكلمات... ولكنْ دَعونا نَعُدْ إلى الأبيات:)

فَمِنْ بَطَلٍ أُخَضِّبُهُ نِزالًا،
وَمِنْ قَبٍّ تَهاوى في ثَواني...
ورُبَّ وَقيعةٍ صارَتْ مِثالًا
لكلِّ وَقيعَةٍ عَبْرَ الزمانِ!

(لاحظوا كيف وزّعَ تأبّط شرًّا، شاعرُ النِّزالاتِ، أواخرَ الأحرف في كلّ من العروض والضرب بهذين البيتين. هي الموسيقى تترك انفعالًا في نفوس السامعين؛ هي الحُمَيّا تهبّ في الشاعر عند المواقَعَة، فيصير، في الشعر طبعًا، بطلًا لا يُقارَع، نسيجَ وحده، يغتصبُ العالم كأنّه يثِبُ على عدوّ... ولكنْ، لا بأس، لِنتابعْ:)

وكُنْتُ أَهيمُ في البَيداءِ وحدي،
وبَيْنَ يَدَيَّ مَصقولُ اليَماني
إِذا بالغولِ في دربي تراءَتْ
كطَيْفِ الموتِ مَشقوقِ اللسانِ

(كان اللسانُ المشقوق صفةً من صفات الغول التي قضى عليها شاعرُنا ذاتَ مرّة. ويبدو أنّها هنا لم تتغيّرْ –كما تغيّرَ شاعرُنا–، بل بقيتْ على طبيعتها، وقد بُعِثَتْ حيّةً، على مَرِّ الأيّام.)

تَذَكَّرْتُ الصراعَ، فرحْتُ أَعدو
إِلَيها مُقْدِمًا، ثَبْتَ الجِنانِ،
تَشَظّى عَيْنُها شَرَرًا ونارًا،
وعيني مارِجٌ من أُرجُوانِ!
وَأَضْرِبُها وتضربُني، ونَهوي
معًا في الأَرضِ، أَجهَلُ ما عَراني

ولَكِنّي، رَبيطَ الجَأْشِ، أَلْوي
بِصمْصامي عليها في مَكاني:
أَشُقُّ عيونَها بالنَّصْلِ شَقًّا،
وَأَتْرُكُ جِسْمَها مِثْلَ الشِّنانِ.

(ليست هذه الصورة الملحميّة من غير طائل، لأنّها تُثبتُ ملحميّة الموقف في هذه المعركة الضارية؛ وهي، ككلّ المعارك العربيّة، لا تخلو من المعاناةِ المُرَّةِ، ومِن إشراكِ الآدَميّين ونواياهم أيضًا في

الصراع. إنّها رُقعةٌ من رُقَعِ التاريخِ العربيِّ الذي هَزَّنا عَميقًا، وتجلّى في صُوَرٍ قد لا نريدُها، وقد نثور عليها... ولكنْ، لِنَدَعِ الاستطرادَ جانبًا، ولْنتابِعْ:)

وَأَبْتُرُ رَأْسَها، وَأقومُ عنْها،
وَأَتْرُكُها مُخَضَّبَةَ الجِرانِ —
أَلا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ
بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحى بطانِ؟
بِأَنّا الحامِلونَ المجْدَ شَمسًا،
وأَنّا الزارِعونَ سَنا الأَماني؛

فنَحنُ العُرْبُ قَدْ عَلِمَتْ قُرَيشٌ
نخوضُ الحرْبَ غيلانًا تُعاني...

(وهنا توقّف تأبّط شرًّا عن الإنشاد، وبكى... بكى... بكى... حَولًا كامِلًا، حتّى أغرقَتْ دموعُه جَدَثَه، فغرقَ، واختنقَ في الدموع، ولفظَ روحَه. أَجَلْ! ماتَ تأبّطَ شرًّا من شدّة كمَدِه، مرَّةً ثانيةً، وماتتْ معه الغيلانُ والسعالي؛ ولكنَّ الواقعَ العربيَّ ظلَّ كما هو، فما غرقَ في الدموعِ، ولا اختنقَ، وظلَّت فيه غيلانُهُ تصولُ

وتجولُ، وظلَّتْ شظاياهُ شظايا، وأشلاؤهُ أَشْلاءً مبعثرةً، هنا وهناكَ، بينَ المحيطِ والخليج، تستغرقُ في ملاحمِ الشعرِ، ومواقَعاتِ الغيلانِ والسَّعالي، وظلَّ الإنسانُ العربيُّ ههنا دخانًا يتبخّرُ في السماءِ، ولا يبقى له، كَعالَمِهِ، أيُّ أَثَر...!)

المرثاة الرابعة:

مرثاة مملكة الصعاليك

رملٌ يتسلَّلُ بينَ العينِ
وبينَ النظْراتْ.
منذ الأولى ليلًا
كانَتْ مطرقةُ العَتْمةِ تجتاحُ اللحَظاتْ...
وجهٌ
والرائحةُ المفتوحةُ من رَملِ الأَرضِ
تلمُّ بقاياها

وتصيرُ... قصائدَ.

وجهٌ

وصحارى التيهِ تُخَبِّئُ تحتَ بلادَتِها

سيفًا من خشَبٍ،

وشموسًا سوداءَ،

ونارًا من ثَلْجْ...

وَجهٌ

و الأرضُ المفتوحةُ كالثديِ

تَمَدَّدُ تَحْتَ الرَّهْجْ،

و"تأبّطَ شرًّا"

يستَغرِقُ في شِعرِ الغيلانِ
وَيقْبَعُ في أعماقِ الدَّلْجْ...

رملٌ يتسلَّلُ في الحَلْقِ
وبينَ الأسنانِ/ سَمِعْنا
وطنًا صُعلوكًا
يَقفزُ كالأرنبِ فوقَ الرملِ.
سَمِعْنا صعوكًا كالوطنِ النافرِ
يُنشِدُ شِعْرًا:

دَعَسْتُ على غَطْشٍ وَبَغْشٍ، وصُحْبَتي
سُعارٌ وإِزْريرٌ ووَجْرٌ وَأَفْكُلُ.
وسمعْنا آهاتٍ تَتَكسَّرُ
كالشجرِ المثْقَلِ بالثَّمَرِ –
كانَ "سُلَيْكٌ"
صعلوكًا كالوطنِ الطافرِ
من جرحِ الزَّهَرِ...

رملٌ يتسلَّلُ في الأَنفْ

يتناسَلُ في مَملكَةٍ
عيناها رملٌ
ويداها رملٌ
والأحلامُ رمالٌ...
صُعلوكٌ يتنفَّسُ صعلوكًا...
صعلوكُ يتقَيَّأُ صعلوكًا...
وحُبَيباتُ الرملِ صَعاليكٌ تفترسُ الصحراءَ
وتَخْلَعُنا
في هذا الوطنِ المخلوعْ...

(٢٣/ ٤/ ١٩٩٢)

المرثاة الخامسة:

مرثاةُ الشيء

١ – الشيء:

يخرجُ "الشيءُ" من وجهِهِ بارِدًا،
حَجَرًا أو... قضايا،
يُغلقُ الأرضَ بينَ ستائرِهِ
ثمَّ يخْترعُ الجوعَ
أو يرسمُ الجوعَ حولَ انهيارِ القضايا،
يجوعُ،

يصيرُ المدى...

يقعدُ "الشيءُ" في ليلِ وحدتِهِ:
كُوَمٌ حولَهُ...
كُوَمٌ يمضغُ الغيمَ فيها
وتمضغُهُ،
كُوَمٌ ترتقيهِ وتُغلِقُهُ... كالستائرِ
أو كالمدى في الستائرْ.
يَقعدُ "الشيءُ" في ظِلِّهِ

مثلَ برْدٍ طَويلٍ.
تُحوِّلُهُ مُدُنُ الجوعِ ممسحَةً
أو دُجًى...

٢ – عالم الشيء:

يرقدُ "الشيءُ" في ذاتِهِ
والأماني رمالْ...

ثَمَّ يَبني من الصمتِ بيتًا،

يُكَوِّرُ عينَيهِ بينَ الهَباءْ –
أَمَا كانَ بينَ رمالِ الصدى
موحِشًا كالصدى؟
ثُمَّ يبتَكِرُ الصمْتَ،
يَمْسَحُ فاهُ،
يصيرُ هَباءْ...

يُسَمّونَهُ "الشيءَ"،
لَكِنَّهُ موحِشٌ... موحِشٌ...

بقِيَّةُ صَمْتٍ على حفْنَةٍ من ترابْ.

يرقدُ "الشيءُ" في ذاتِهِ
والأماني تُرابْ...

المرثاة السادسة:

قصيدة الأطلال

كانت الأقدامُ تَدّافَعُ نحوَ
مضيقٍ باردٍ من العيونِ، والأرضُ
مائعةً كطبقٍ من الهلام.
كانَ الشِّعْرُ طبقَ السياسيّينَ اليوميَّ
والصِّحافةِ السياسيّةِ،
والناسُ مقيَّدونَ في
مدينةِ الشِّعْرِ.

(كيفَ أَدخُلُكِ، يا "أورُ"
وأنا لا أَخرجُ منْكِ؟)
كانَ البكاءُ على الأطلالِ
إفطارًا يوميًّا للشعبِ المنغرسِ
في سياسة الأطلال:
"عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها
بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها..."
(ألا تَرَونَ هذا الإفراطَ في النَّفَسِ
عندَ اللهاثِ: مُها... مُها... مُها...)
ونحن نلهثُ معَ "لبيدٍ" في معلّقاتِنا اليوميّةِ

وحكّامُ "أورَ" يصفّقونَ:
فَمَدافِعُ الرّيّانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقًا بما ضَمَنَ الوَحِيَّ سِلامُها."
(كيفَ أدخلُ إليكِ، يا "أورُ"،
وأنا لا أَخرجُ منْكِ؟)
بينَ الفَينَةِ والفَينَةِ
تتمرّدُ عَينٌ على الشِّعْرِ
وأخرى على الشعراءِ؛
لكنَّ الأقدامَ التي بينَ الفمِ والطريقِ
– والتي، بالتالي، لا نحتاجُها –

تَدْأَبُ في المشْيِ على طَبَقِ الهلام،
وقد تمرُّ على عِرْضٍ أو حِمًى (لا نحتاجها أيضًا)
ثمَّ تقفُ على الوجوه،
أو على الأَقْفِيَةِ
– وحُكّامُ "أورَ" يصفِّقون –
أهْلًا، أَيُّها الآتي من جحيمِ الشِّعْرِ،
أَيُّها الأخُ "المناضِلُ"، "الرفيقُ"، الوَطَنِيُّ"،
"المجاهِدُ"، "الفِدائيُّ"...
– وحكّامُ "أورَ" يصفِّقون –
وأنا

بينَ الفَينَةِ والفَينَةِ

أقترحُ النومَ

أو الانتحارَ بالحياةِ!

لكنَّ المعلَّقاتِ تداهمُني

تُمارِسُ الإرهابَ علَيَّ (وربَّما اللِواطَ

وكلَّ أنواعِ الشذوذِ):

"لِخَوْلَةَ أَطلالٌ ببَرْقَةِ ثَهْمَدِ

تلوحُ كَباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ."

و"خَوْلَةُ" ترمُقُنا من قَبرها شَزَرًا

ونحنُ نَترامَقُ

– وحكّامُ "أورَ" يصفّقون –

(كيفَ أدخلُ إليكِ، يا "أورُ"،
وأنا لا أَخرجُ منْكِ؟)
لِ"خَولةَ" أطلالٌ ولنا أطلال.
لِ"طرفةَ" "خَولةُ" ولنا الشِّعْرُ والشعراءُ
والسياسةُ والخَطابَةُ والنكاحُ،
ولنا أطلالٌ نسمّيها الوطَنُ
(ما أصعبَ الوصولَ إلى معنى الوطنِ
في صحراءِ "أورَ"!)
ولنا العروشُ والطوائفُ والأمراءُ والحروبُ

وانتحاراتُ الحياةِ،
ولنا الأرضُ كقسيمةِ اللوتو،
أو كدولابِ اليانصيبِ الوطنيِّ...

المرثاة السابعة:

مرثاة لعصر خليل حاوي

(أو: قصيدة الترجمان)

عندما تَفجأُ الشمسُ ظِلَّ الهَبَاءِ تُنَمّي الجراحُ غَماماتِها في ضبابِ الفصولِ، ويَنخَلِعُ الرَّعْدُ مِنْ حالِقٍ؛ ومتى هاجَرَتْ بَعضُ أَقْبِيَةِ الجوعِ في حَلْقَةِ الصَّبْرِ يبقَ الصدى هاجِعًا حَوْلَ بعضِ الرمادِ —

هنا

يَفْتَحُ

الليلُ

أَغْوارَهُ

للهَباءْ!

عندَما تَفْجَأُ الشمسُ عارَ المسافةِ، والظِّلُّ يُحْفَرُ تَحْتَ الغصونِ الكسولاتِ يَهْطُلُ بعضُ الفِلِزِّ مِنَ النَّجْمَةِ المومِياءْ.

هَهُنا يرفَعُ الأَفْقُ جَفْنًا صَديعًا، وتَخْرجُ، يا تَرجمانُ، منَ التُّرْبِ فِكْرًا تَكَلَّسَ؛ لَكِنَّما يَستَسيغُ الذُّهولُ انتِحارتِكَ السودَ، يَستَنْفِرُ الجوعُ أَطْيافَهُ. تَخرجُ الآنَ، يا تَرجُمانُ، مِنَ البُعْدِ، والأَرضُ "أَضْيَقُ من ظِلِّ رمْحٍ"، وتُمْسِكُ باللونِ، تَعْصُرُهُ لَفْظَةً في الخَواءِ...

المرثاة الثامنة:

مرثاة لملوك الطوائف

– ١ –

الهَوْلُ يَعلُكُهُمْ،
ويَعلُكُنا الغبارْ،
والصمْتُ يَدمغُ جَبْهَةَ الآتي
ويعْقُبُهُ انتظارْ،
وتمرُّ أَحصِنَةُ الغزاةِ على الجباهِ فيركَعُ التاريخُ
تحتَ العارِ. كنّا نجمةً صَدَعَتْ جبينَ الشرقِ وانتَثَرَتْ
شظايا،

تَمضي إلى الوطنِ المهاجرِ في عيونِ القبْرِ.
نسْأَلُهُمْ بقيَّةَ دمعةٍ فنُصابُ بالدَّيجورِ. نسألُهُمْ بقايا عمرِنا
فإذا بهمْ فِطرٌ تناثرَ في هَباء الوقتِ/ كانَ الصمتُ أحصنةً
تمرُّ على جِباهِ الأَرضِ والوطنُ السَّليبُ وسادةً للهَولِ.
نمضي في عروقِ الصمتِ نحوَ رمادِهِ الحجريِّ – آهٍ! رُدَّ
بابَ القبرِ، وافتَحْ في المدى

جُرْحًا، وشُدَّ العمرَ في ليلِ الصدى
وَلْيَنْقَفِلْ وجَعُ المسافاتِ الرهيبةِ. لا بقايا
غيرَ ليلٍ في جليدِ العمرِ يبتلعُ البَرايا.
لا شيءَ غيرَ ضميرِنا العاري

يُشَدُّ إلى الضحايا
في غَيهَبٍ أَدْجى منَ القبرِ البَليدِ/
وَمَنْ، تُرى، دَقَّتْ أصابِعُهُ على جَدَثِ المسيحِ
فما أجابَ،
ولا انبرى في عَينِهِ نورٌ،
ولا انْزاحَ الحجرْ:
ظِلٌّ رهيبٌ باردٌ...
لا صَلْبَ،
لا جرحٌ ينزُّ
ليغسلَ الآثامَ في دنيا البشَرْ...

ومَن انْبرى لـ"الفتْحِ"
فانكسَرَتْ سيوفُ الفارسِ المعجونِ بالطوَفانِ
وانتَزَعَ السُّوَرْ
وطوى "الكِتابَ"،
فصارتِ الآياتُ أَحذِيَةً،
وصار العارُ تاريخًا
ثقيلًا... كالضجَرْ...؟

أَلعرشُ خاوٍ

والملوكُ مَماسِحٌ
رُمِيَت على صَدَإِ النهارْ.
ألهَولُ يعلُكُهُمْ
ويعلُكُنا الغبارْ...
والصمتُ يَدْمغُ جبهَةَ الآتي
ويعقبُهُ بَوارْ...

– ٢ –

وجهي شِراعٌ

مَزَّقَتْهُ الريحُ في كلِّ اتِّجاهْ
ورأى الملامِحَ والزوايا
فانطوى خوفًا وودَّعَ حلْمَهُ
وتطايرَ الوطنُ الذي نبضَتْ بهِ الأحلامُ
في كلِّ اتِّجاهْ...
وجهي شراعٌ مزَّقَتْهُ الريحْ...
وجهي يمرُّ على العروشِ فتستفيقُ طوائفٌ
صَمّاءُ كالحجرِ الذي سدّوا بهِ بابِ الضريحْ.
نعلٌ تمرُّ على الوجوهِ
فتصنعُ الأبطالَ من خِرَقٍ

ومِن نَتْنٍ
تَكَدَّسَ في زوايا الأرضِ والليل الفَسيحْ...
نعلٌ تمرُّ
فتصنعُ التاريخَ،
أو تسمو
فتضربُ جَبْهةً شمَخَتْ على وجهِ المسيحْ!
نعلٌ تهبُّ لترقعَ الدنيا وترقعَنا،
وتضربُ جَبْهةَ اللهِ التي دَمِيَتْ
على صدإِ العروشِ/
يمرُّ وجهي:

كلُّ عرشٍ خطوةٌ في لعنةِ الموتِ.
ٱنتظارٌ، ثُمَّ ينهمرُ الصدى!
كلُّ العروشِ تفجّرَتْ في وَجهِنا المسكونِ
بالقهرِ الطويلِ.
يمرُّ وجهي:
كلُّ خطْوٍ رحلةٌ في بَلْقعِ القبرِ.
ٱنتظارٌ، ثمَّ ينهمرُ الصدى!
وجهي المدى،
وجهي سَفينٌ من عِظامْ
والبحرُ جِلْدٌ قُدَّ من أجسادِ أطفالٍ

ومِن وجَعِ العصورِ
ومن ظَلامْ...
وجهي سَفينٌ من عِظامْ،
والأفْقُ بابٌ من حديدٍ مُقفَلٌ
قُدّامَهُ غُرِسَتْ رؤوسٌ
قدْ رَوَوها من دَمِ الأطفالِ/ أُفْقٌ
والمدى أعصابُ قَبْرٍ
شَلَّها ثِقْلُ الجليدِ
وثِقْلُ أَطباقِ الركامْ.
أُفْقٌ...

وخَلْفَ الأُفْقِ شَعْبٌ
مِنْ حطامْ!

– ٢ –

كانَ المدى
قَفْرًا تغطّيهِ الرمولْ.
والوجْهُ قَفْرًا
عَبْرَهُ صمتٌ صفيقٌ، لا يزولْ،
والليلُ قفرًا

طرَّزَتْهُ جَماجِمٌ لَمّاعَةٌ،
والصمتُ أمعاءً تطولْ...
مَشَتِ العصورُ هنا إلى وَجَعِ الخَواءِ.
تراجَعَ الزمَنُ الطويلُ.
تراجعَ التاريخُ عَن أشلاءِ تيجانٍ
وخَطْواتٍ يَبِسْنَ على الرمالِ.
تراجَعَ الزمنُ المهشَّمُ...
كلُّ ما مَسَحَتْ دموعُ العَينِ ينبتُ في
ضميري/ كلُّ برقٍ يمتطي أَحزانَهُ ويهبُّ مُجتاحًا جِدارَ
عيونِنا –

برقٌ ويصطكُّ المدى...
برقٌ
وتنبتُ في ضميرِ الشرقِ أَضرحةٌ جديداتٌ،
عروشٌ مُقفِرَهْ.
بَرَكَ الظلامُ على جحيمِ المقبَرَهْ.
ألعرْشُ شاهِدَةٌ،
وعينايَ الظلامُ الباردُ المركومُ من وجَعٍ حَرامْ.
وجهي سَفينٌ من عِظامْ
والليلُ قافلةٌ من الرعبِ الذي دَمَغوا بهِ وجهَ
الزمانِ/ كأنَّ أعضائي تهاوَتْ في الرحيلِ المستديمِ. كأنَّ
أَعصابَ الورى فَحْمٌ أَصَمُّ

وكأنّما الدنْيا هَباءٌ مُطْبِقٌ
ومدًى يُحَمُّ...
في كلِّ زاويةٍ سَعالٍ تأكلُ العينينِ والقلبَ المهيضَ/
تراجَعَ التاريخُ عَنْ قبرٍ وشاهِدَةٍ
وجمجمةٍ تنامُ على العروشِ ولا تنامْ...
وجهي سَفينٌ من عِظامْ،
والأُفْقُ مطرقَةٌ تَحُزُّ ضَميرَنا،
والشعبُ سورٌ من ظَلامٍ يابسٍ حتى العظامِ،
ومِنْ... عِظامْ...

(آب – أيلول/ ١٩٩٣)

الفهرس



في كلِّ زاويةٍ سَعالٍ تأكلُ العينينِ والقلبَ المهيضَ/
تراجَعَ التاريخُ عَنْ قبرٍ وشاهِدَةٍ
وجمجمةٍ تنامُ على العروشِ ولا تنامْ...
وجهي سَفينٌ من عِظامْ،
والأُفْقُ مطرقَةٌ تَحزُّ ضَميرَنا، والشعبُ سورٌ من ظَلامٍ يابسٍ حتى العظامِ،
ومنْ... عظامْ...